الطريق إلى السعادة

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضـــلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. وبعد:

فإن غاية ما يطمح إليه الإنسان ويتمنـــاه في الحيـــاة: تحقيـــق السعادة والاطمئنان! لذلك كان الطريق إلى السعادة أنفس ما ينبغي للمرء الحرص عليه وتمييزه تميزا دقيقا عن سائر الطرق المتشـــعبة في متاهات الضيق والتعاسة.

ومهما اختلفت التعاريف وتضاربت الحدود في تحديد مفهـــوم السعادة في الحياة، فإن كافة الدارسين لا يختلفون على أنها شـــعور نفسي ينبع من أعماق الإنسان ليبعث الإشراق في فكره وروحـــه وجوارحه وكل المشاهد من حوله.

فما هو طريق السعادة.. وكيف للمسلم أن يظفر بها في الحياة؟

لا تنس الأسباب الشرعية للسعادة

تطالعنا المعارض والمكتبات بين الفينة والأخرى بكتب تتنـــاول موضوع السعادة في البيت والأسرة، والحياة الشخصية.. ويشـــتد عجبي وأنا أحملق في واجهة من واجهات المكتبات وقد خصصـــت تلك الواجهة برمتها لكتاب غربيين يتناولون موضوع الســـعادة..

وما يتفرع عنها من المواضيع المتعلق بحياة الأسرة والمرأة بل وحتى الأطفال.. وأتساءل مع نفسي في اندهاش صامت: كيف لهذه الكتب التي دبجتها الأيادي الغريبة أن تعلم المسلمين السعادة!

طبعا فليست تلك الكتب بعيدة كل البعد عن قواعد السعادة في الحياة.. فهي تختزل بين صفحاتها عصارة التجربة الإنسانية لتصوغ منها قواعد ثابتة لتحصيل السعادة.. لكنها على حالها ذاك تفتقر إلى الأساس الذي به تحفظ السعادة وتنمو.. وتفيض وتربو.. فهي كتب تتسم بالجفاء الفاحش لكل ما يتعلق بالدين.. وتجد الكاتب فيها يبرز شخصيّته وكأنه نبي مرسل، فهو من يقرر ما يسعد الإنسان وما لا يسعدهم دونما ربط لحقيقة السعادة بحقيقة الوجود وحقيقة الحياة وحقيقة الألوهية لله سبحانه في كل هذا الوجود!

لذا فإن المؤمن وهو يتناول موضوع السعادة يختلف اختلافا كليا عن غيره، فهو يتناولها مستشعراً أنها من أعظم نعم الله على خلقه.. هو خالقها.. وهو الذي يهبها لمن يشاء.. وهو الذي شرع لعباده السبل الميسرة لنيلها.. ونهاهم عن الطريق التي تنحرف بهم عن اكتسابها..

أخي الكريم.. إن أول خطوة في الاتجاه الصحيح نحو السعادة هي أن تعلم أنها بيد الله وحده.. هو مالكها وحده.. وهو الذي يمن بها على من يشاء من عباده وحده! فإذا عرفت ذلك لزمك الثبات على الاستعانة به سبحانه في أن يهب لك السكينة والطمأنينة

والسعادة وراحة البال، والكفاية من مكدرات العيش ومنغصـــات الحياة.

ومن رحمته سبحانه وشفقته وإحسانه بخلقه أن علمهم ســـبل السعادة وجعلها سهلة يسيرة فمن آمن بكتابه وصدق نبيه ﷺ هان عليه أمر تحصيلها، وإليك أخي الكريم جملة من الأسباب الشـــرعية اليسيرة التي تنزل بها السكينة وتحصل بها الطمأنينة وتتحقـــق بهـــا السعادة..

١- تقوى الله سبحانه:فهي الاسم الجامع لكل مـــا يحبـــه الله ويرضاه، وأصلها أن تجعل بينك وبين عذاب الله وسخطه وقايـــة، وعذاب الله سبحانه يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة، وهو في الدنيا متعلق بالأرواح والأجساد، ومن عذاب الأرواح والأنفـــس ضيقها ونكدها وضنكها. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْـــرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه: ١٢٤]. وليس هناك شيء يقي المسلم من الضيق والضنك والعذاب النفسي خير من سلوك طريق التقوى باجتناب المحرمات والحـــرص علـــى الواجبات والاستكثار من أعمال الخير والبر. ولهذا كانت التقـــوى هي وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّـــيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النســـاء: ١٣١]. ولله در القائل:

ولســـــت أرى الســـــعادة جمـــــع مـــــال
ولكـــــــن التقـــــــي هـــــــو الســـــــعيد

ومن تتبع ثمرات التقوى في الكتاب والسنة تبين له أنها البـــاب الأوسع والأيسر للسعاة قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّـــهَ يَجْعَـــلْ لَـــهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِـــبُ**﴾ [الطـــلاق: ٢-٣]، ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: ٤].

٢- الحـــرص علـــى الأذكـــار الدافعـــة للـــهموم الجالبـــة للانشراح:وهذا يغفل عنه أكثر الناس ولا يلتفت له إلا القلة منهم، ذلك أن الله جل وعلا قد جعل في وحيه مـــن البركـــة والفضـــل والرحمة ما لا يعلم قدره إلا هو، فمن عظَّم كلماتـــه واستحضـــر معانيها الجليلة وأتى بها على الوجه الذي ارتضاه لنبيه نالـــه ذلـــك الفضل وعمته تلك البركة ونزلت عليه تلك الرحمة، ومن الأذكـــار المسنونة في دفع الهموم وجلب السرور والفرح ما يلي:

- أذكار الصباح والمساء فإنها أنفع ما يستعين به المسلم علـــى حياته كلها، وأنفع ما يجلب للمسلم الانشراح في صدره والطمأنينة في قلبه، فقد اشتملت على تعوذات نفسية مـــن أســـباب الضـــيق والحزن والهم والقلق والفزع، كما اشتملت على أدعيـــة وأذكـــار جالبة للرضى والغنى والبهجة والسرور والكفاية والعنايـــة مـــن الله سبحانه، ويوشك من حافظ عليها أن لا يمسه السوء أبدا إلا بـــإذن الله، وأن يغمر بالسكينة والرحمة، ولذلك كان أسعد البشر وهـــو رسول الله ﷺ محافظا على هذه الأذكار لا يخل بها أبـــدًا، ولطالمـــا أوصى أمته بالمحافظة عليها في أحاديث كثيرة جليلـــة مبســـوطة في كتب أذكار اليوم والليلة.

- الأذكار المؤقتة، وهي أذكار الأحـــوال العارضـــة، وهـــذه الأذكار فيها خير كثير وفضل جليل، فرب ذكـــر اشـــتمل علـــى كلمات وجيزة جعله الله وقاية من عظائم الآفـــات وكفايـــة مـــن المهلكات فيمن ذلك أذكار النوم والاستيقاظ وأذكـــار الخـــروج والدخول وغيرها بحسب المكان والأحوال.

- الأذكار الدافعة للشرور: وهي جملة التعـــوذات والأدعيـــة الثابتة في السنة وجاء التنصيص على أنها كلمات يدفع الله بها البلاء، وينجي بها من الهموم والأحزان والمصائب فمن ذلك أدعية الكرب والهم والحزن: "لا إله إلا الله العظيم الحلـــيم، لا إلـــه إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض رب العـــرش الكريم، فإن كان الكرب بسبب ظالم فزد على هذا الذكر: اللـــهم قني شر فلان" فيوشك أن ينتقم الله منه في الحال!! وكذلك: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث". وكذلك: "الله الله ربي لا أشـــرك بـــه أحدا"، وكذلك: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"، وكذلك: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكســـل والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال". وكذلك: "اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلتـــه في كتابك أو علمته أحد من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيـــب عندك أن تجعل القرآن العظيم نور صدري وربيع قلبي، وجلاء حزني وذهاب همي".

فهذه الأذكار كلها دواء من الأحزان وشـــفاء مـــن الهمـــوم

والأنكاد، وإن الحافظ لها المحافظ عليها ليوشك -والـــذي نفســـي بيده- أن يعيش أسعد الناس وإن كان فقيرا، وأنشط الناس في نفسه وإن كان عليلا، ما كان محافظا على أوامر الله وتقواه.

وهذه الأذكار وغيرها كالتهليل والتسبيح والاستغفار والصلاة على الرسول ﷺ كلها من موارد السعادة وينابيعها التي أعرض عنها عامة الناس وراحوا يلتمسون السعادة في الاعتناء بمظـــاهر اللبـــاس والبيوت وغيرها من المظاهر، ولو أنهم انتبهوا إلى أنفسهم فزكوهـــا بالأذكار، وإلى ذنوبهم فمسحوها بالتوبة والاستغفار، وإلى أرواحهم فطهروها بالعبادة والرجوع إلى الله؛ لنشطت قلـــوبهم، ولـــذهبت همومهم، ولتفتقت ورود السعادة، وانساب عبيرها الناعم العذب في كل زاوية من حياتهم. قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨].

وهل السعادة إلا اطمئنان القلب؟!

فهذه أخي الكريم.. جملة من الأسباب الشرعية الجامعة، وهي بلا شك تتضمن جملة من الأسباب فمن ذلك الحفاظ على الصلاة، والصدقة، والإحسان وصلة الرحم وبر الوالدين والخلـــق الحســـن، وكثرة فعل الخير عامة فكلها من أسباب الرحمة وأبوابهـــا، وكلـــها أيضا تندرج تحت خلق التقوى العظيم الجامع لكل أعمال الخـــير، فمن رزقه الله الفقه في دينه ويسر له سبل التقوى، فقد وهبه مفاتيح السعادة وينابيعها فقد قال رسول الله ﷺ: «**افعلوا الخير دهـــركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها**

من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عـــوراتكم وأن يـــؤمن روعاتكم» [رواه الطبراني وهو في السلسة الصحيحة ١٨٩٠].

الأسباب الكونية

وأما الأسباب الكونية للسعادة فهي مرتبطـــة بحقيقـــة الحيـــاة وقوانينها وطبيعة كينونتها وناموس الله الثابت فيها. فمما اتفقـــت عليها سائر العقول والملل والأديان أن الحياة لابد فيها من المجاهـــدة والمكابدة، والمغالبة، ويستحيل عقلا أن يعيش إنسان ما عارٍ عـــن المجاهدة والمدافعة في الحياة، والقرآن يقرر هذا المبدأ بوضوح، قـــال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾.

من هنا كان لابد على كل طالب للسعادة أن يوطن نفسه على ما تقتضيه هذه المكابد والمغالبة فماذا تقتضي؟!

١- توطين النفس على المكاره: فمن توقـــع أنـــه -ولابـــد- سيمسه شيء من السوء وشيء من منغصات الحيـــاة، وأن ذلـــك حاصل لا محالة لكل الناس، خف جزعه وقل فزعـــه، لاســـيما إذا استثمر توقعه بتهيئة نفسه إيمانياً وصحياً ومادياً للوازم البلاء المتوقع.

ليس الأمر هنا متعلقا بالوسوسة وتوجس الشـــر والقلـــق في المستقبل، وإنما يجعل النفس قادرة على خوض معركة الحياة وتحمل قساوة العيش، واستواء حالة الغنى والفقر والصحة والمرض، والبلاء والعافية، وهذا أمر لا يحصل إلا لأحد شخصين.

الأول: قد غمر الإيمان قلبه حتى فاض على جوارحـــه فصـــار رضاه بقدر الله وقضاءه لا تزحزحه الأحوال كيفما كان أمرها!

والثاني: رجل ضعيف الإيمان أو لا إيمان له، لكنـــه أوتي مـــن الخبرة والحكمة في الحياة ما جعله موقنا أن الصبر مفتاح الأمل، وأن الجزع والتعاطي مع البلاء لا يفيد شيئا في رده!

٢- اجعل من المحنة منحة: وأما من رزقه الله فقها في أحـــوال البلاء وحقيقته وكيفية تلقيه والتعاطي معه وتصـــريفه، فقـــد رزق أعظم مفتاح يتقي به الفتن وينجح به في شدائد الامتحـــان. قـــال رسول الله ﷺ: «**إن السعيد لمن جنب الفتن ولمن ابتلي فصبر**».

أخي.. لو تأملت بعمق في حقيقة البلاء الذي يتعرض له المسلم ودققت النظر في هيئة وقوعه العجيبة لأدركت أن المسلم مغبون إذا لم يكتسب طاقة يحول بها محنته القاسية إلى منحة مواســـية! بيـــان ذلك:

فمما لا خلاف فيه أن أهم الأعمال التي لا يحصي أجرها ولا يعده إلا الله: الصبر. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

قال سليمان بن القاسم: "كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر".

ومن المعلوم أيضا أن الصبر يتفاوت بحسب تفـــاوت الـــبلاء، وكلما كان صبر المسلم شديدا كان أجره كبيرا كما أخبر النبي ﷺ فقال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**» [رواه الترمذي].

من هنا فإن من ابتلاه الله ببلاء عظيم ثم هيأ له مـــن أســـباب الصبر ما يستطيع بها التحمل والتصبر، فإنه بذلك يكون قد أكرمه و لم يهنه، وقد ابتلاه ليعطيه على قدر صبره وجلده..

وأما من لم يبتله الله ألبتة فلربمـــا لأنـــه لا يســـتحق دخـــول الامتحان.. وليس له أهلية لدخول مضمار السباق.. ولـــيس ممـــن يستحقون الأجر بغير حساب..

أخي الكريم: هكذا ينبغي أن تنظر إلى الأمور.. أن تتفحص في عواقبها.. وأن تزنها بشمولها في الدنيا والآخرة.. وأن تستخرج منها كل ما هو إيجابي ثم تقارن بينه وبين السلبيات.. فإن فعلت ذلك مع كل بلاء أصابك فلابد وأنه سينقلب في حقك إلى سبب من أسباب السعادة لأنك ترى بعين عقلك عاقبة البلاء فتهون معها ما يعتريك من قهر وجهد ونحو ذلك مما يظهر للآخرين أنه بلاء.

وهذه أيضا قل في الناس من يفطن لها، ولكم كـــان الســـلف الصالح حريصين على هذه الخصال في حالهم مع البلاء.

قال ابن أبي الدنيا: "كانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب".

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم..